(منهج البحث الادبي)

منهج البحث الأدبي: من قراءة النص إلى بناء الرؤية النقدية

لا يبدأ البحث الأدبي من مجموعة من الكتب والمراجع، ولا ينتهي بمجرد جمع المعلومات وترتيبها، وإنما يبدأ من سؤال يثيره النص أو الظاهرة الأدبية في ذهن الباحث، ويدفعه إلى البحث والتقصي ومحاولة الوصول إلى إجابة علمية عنه. ومن هنا فإن البحث الأدبي يمثل انتقالًا من القراءة العادية إلى القراءة الواعية التي تقوم على الملاحظة والتحليل والتفسير والمناقشة.

فقد يقرأ الطالب قصيدة فيجد فيها صورة جميلة، أو تكرارًا لبعض الألفاظ، أو حضورًا واضحًا للطبيعة، وقد يلاحظ في رواية كثرة الحوار أو غلبة صوت الراوي، إلا أن هذه الملاحظات لا تصبح بحثًا أدبيًا إلا عندما تتحول إلى أسئلة محددة، ويبدأ الباحث في تتبعها داخل النصوص، والاستعانة بالمصادر التي تساعده على فهمها، ثم تحليلها للوصول إلى نتائج يمكن الدفاع عنها.

وبذلك يمكن القول إن منهج البحث الأدبي هو الوسيلة التي تنظم علاقة الباحث بالنص، وتساعده على الانتقال من الملاحظة إلى السؤال، ومن السؤال إلى التحليل، ومن التحليل إلى النتيجة.

أولًا: طبيعة البحث الأدبي

يتميز البحث الأدبي بخصوصية تميزه عن كثير من البحوث الأخرى؛ لأنه يتعامل مع مادة تقوم في جانب كبير منها على اللغة والتخييل والجمال والتجربة الإنسانية. ولهذا لا يستطيع الباحث أن يتعامل مع النص الأدبي بوصفه مادة جامدة، بل يحتاج إلى قراءة تجمع بين الدقة العلمية والوعي بطبيعة الأدب.

فالقصيدة، مثلًا، لا تتكون من ألفاظ ومعانٍ فقط، وإنما تتداخل فيها الصورة والإيقاع والموسيقى والرمز والعاطفة، وقد تحمل الكلمة الواحدة أكثر من دلالة بحسب السياق الذي وردت فيه.

ومن هنا فإن الباحث الأدبي مطالب بأن يحافظ على التوازن بين العلمية وجمالية النص؛ فلا يكتفي بالانطباع الجمالي، ولا يحوّل النص إلى مجموعة من الأرقام والإحصاءات التي تفقده خصوصيته الأدبية.

ثانيًا: من أين تأتي فكرة البحث الأدبي؟

قد يعتقد الطالب أن اختيار موضوع البحث يتطلب العثور على موضوع لم يكتب فيه أحد من قبل، وهذا أمر يصعب تحقيقه في كثير من المجالات الأدبية. لكن التجديد في البحث لا يعني بالضرورة أن يكون الموضوع جديدًا بصورة مطلقة، وإنما قد يتحقق التجديد من خلال زاوية جديدة في النظر إلى الموضوع.

فقد تكون هناك دراسات كثيرة عن شاعر معين، لكن الباحث يستطيع أن يدرس جانبًا محددًا من تجربته لم يحظَ بالدراسة الكافية، أو يعيد قراءة ظاهرة معروفة في نصوصه من منظور مختلف.

وقد تأتي فكرة البحث من:

- ملاحظة ظاهرة متكررة في نص أدبي.
- وجود اختلاف بين النقاد حول قضية معينة.
- اكتشاف جانب لم يحظَ بالدراسة الكافية.
- الرغبة في مقارنة تجربتين أدبيتين.
- وجود تحول واضح في تجربة أديب أو شاعر.
- ملاحظة علاقة بين النص وسياقه التاريخي أو الاجتماعي أو الثقافي.

إذن، فإن فكرة البحث قد تبدأ من ملاحظة صغيرة، لكنها تصبح موضوعًا علميًا عندما يستطيع الباحث تحديدها وصياغتها في صورة مشكلة قابلة للدراسة.

ثالثًا: العنوان الأدبي بين الدقة والجاذبية

يمثل عنوان البحث أول مدخل إلى الدراسة، ولذلك ينبغي أن يجمع بين الوضوح والدقة، وأن يكشف عن المجال الذي يتحرك فيه البحث.

والعنوان الجيد ليس العنوان الطويل الذي يحتوي أكبر عدد من الكلمات، وإنما العنوان الذي يستطيع أن يحدد للقارئ موضوع البحث وحدوده.

فعنوان مثل:

«الشعر العربي المعاصر»

عنوان واسع جدًا، لأنه لا يحدد شاعرًا أو فترة أو ظاهرة أو قضية.

أما إذا أصبح العنوان:

«صورة المدينة في الشعر العراقي المعاصر»

فإن مجال الدراسة أصبح أكثر وضوحًا.

ويمكن للباحث أن يزيد التحديد بحسب طبيعة البحث، فيحدد الشاعر أو الفترة أو الديوان أو الظاهرة، بحيث يصبح العنوان قادرًا على رسم الحدود الأولية للدراسة.

رابعًا: النص الأدبي بوصفه مادة البحث

يحتل النص الأدبي مكانة مركزية في البحث الأدبي؛ لأنه يمثل المادة الأساسية التي يستند إليها الباحث في بناء تحليله.

ولهذا ينبغي ألا يكون النص مجرد شاهد يستخدمه الباحث لإثبات رأي سبق أن قرره، وإنما يجب أن يكون النص نقطة انطلاق للتحليل.

فعندما يدرس الباحث ظاهرة معينة، عليه أن يعود إلى النصوص التي تظهر فيها هذه الظاهرة، ويتتبع طريقة حضورها، وموقعها، والعلاقات التي تربطها بالعناصر الأخرى.

وهنا تظهر أهمية السؤال: ماذا يقول النص؟ وكيف يقول ذلك؟ ولماذا اختار الأديب هذه الطريقة دون غيرها؟

فالانتقال من سؤال «ماذا؟» إلى «كيف؟» و«لماذا؟» يمثل انتقالًا مهمًا من القراءة الوصفية إلى القراءة التحليلية.

خامسًا: المنهج ليس قالبًا جاهزًا

من الأخطاء التي قد يقع فيها الباحث المبتدئ أن يتعامل مع المنهج على أنه قالب ثابت يجب وضعه في البحث مهما كانت طبيعة الموضوع.

والصحيح أن المنهج وسيلة، وليس غاية في ذاته. فالمنهج التاريخي يكون مناسبًا عندما يكون البحث قائمًا على تتبع التطور والنشأة، والمنهج الوصفي عندما تكون الحاجة إلى وصف الظاهرة وتحديد خصائصها، والمنهج التحليلي عندما يكون الهدف تفكيك النص والكشف عن مكوناته ودلالاته، والمنهج المقارن عندما تقوم الدراسة على المقارنة بين ظاهرتين أو أكثر.

وقد يحتاج البحث الواحد إلى الإفادة من أكثر من منهج؛ لأن طبيعة الظاهرة الأدبية قد تكون مركبة ولا يمكن دراستها من زاوية واحدة.

لذلك فإن السؤال الصحيح ليس: «ما المنهج الذي سأضعه في البحث؟» وإنما: «ما المنهج الذي يساعدني على الإجابة عن سؤالي البحثي؟»

سادسًا: الباحث الأدبي بين المصدر والنص

يحتاج الباحث إلى المصادر والمراجع، لكنه ينبغي ألا يسمح لها بأن تحل محل النص الأدبي.

فالمصدر يقدم للباحث معلومة أو رأيًا أو مفهومًا يساعده على فهم موضوعه، أما النص فهو المادة التي ينبغي أن يختبر الباحث من خلالها ما يذهب إليه.

ومن الأخطاء الشائعة أن يضع الباحث رأيًا لأحد النقاد، ثم ينقل رأيًا آخر، ثم رأيًا ثالثًا، وينتهي المبحث دون أن يظهر موقفه هو. وفي هذه الحالة يتحول البحث إلى تجميع لأقوال الآخرين.

أما البحث الحقيقي فيقوم على الحوار بين النص والمصدر والباحث؛ فيستفيد الباحث من كلام النقاد، ثم يعود إلى النص ليتحقق من مدى انطباق ذلك الرأي عليه، وقد يتفق معه أو يختلف أو يقدم تفسيرًا آخر.

وهنا تظهر شخصية الباحث واستقلاله العلمي.

سابعًا: التحليل الأدبي وصناعة المعنى

التحليل هو قلب البحث الأدبي؛ لأنه المرحلة التي ينتقل فيها الباحث من عرض المعلومات إلى إنتاج المعرفة.

ولا يعني التحليل شرح الكلمات أو إعادة صياغة مضمون النص، وإنما يعني الكشف عن العلاقات والدلالات التي تنتظم عناصره.

فإذا وجد الباحث تكرارًا في قصيدة، لا يكفي أن يقول: «كرر الشاعر هذه الكلمة عدة مرات»، بل عليه أن يسأل: لماذا تكررت؟ وما أثر هذا التكرار في المعنى والإيقاع؟ وهل تغيرت دلالة الكلمة بحسب مواضع ورودها؟

وإذا وجد الباحث صورة شعرية، فلا يكتفي بتحديد نوعها، بل يبحث في وظيفتها داخل النص، وعلاقتها بتجربة الشاعر، وما تضيفه إلى المعنى.

وهكذا يصبح التحليل عملية تتجاوز اكتشاف الظاهرة إلى تفسير وظيفتها ودلالتها.

ثامنًا: دور الدراسات السابقة

تمثل الدراسات السابقة جزءًا مهمًا من البحث الأدبي؛ لأنها تساعد الباحث على معرفة ما كُتب في موضوعه، وتجنبه تكرار ما أنجزه الآخرون، وتتيح له تحديد موقع بحثه من الدراسات السابقة.

لكن عرض الدراسات السابقة لا ينبغي أن يكون مجرد قائمة بعناوين الكتب والرسائل والبحوث.

فالطريقة العلمية تقتضي أن يوضح الباحث موضوع كل دراسة، وأهم ما توصلت إليه، ثم يبين صلتها ببحثه، وما الذي سيضيفه بحثه إليها.

ومن هنا فإن السؤال المهم عند قراءة الدراسات السابقة هو:

ماذا قدمت هذه الدراسة؟ وماذا بقي للبحث الحالي أن يقدمه؟

وهذا السؤال يساعد الباحث على تحديد الإضافة العلمية التي يسعى إلى تحقيقها.

تاسعًا: شخصية الباحث في البحث الأدبي

على الرغم من اعتماد الباحث على المصادر والدراسات السابقة، فإن البحث الأدبي الناجح ينبغي أن يحمل شخصية صاحبه.

ولا تعني شخصية الباحث أن يكتب آراء شخصية مجردة من الأدلة، وإنما تعني أن يكون قادرًا على بناء موقفه العلمي من خلال القراءة والتحليل والمناقشة.

فالباحث قد يتفق مع ناقد في قضية معينة، لكنه يستطيع أن يضيف إلى رأيه تفسيرًا آخر، وقد يختلف مع رأي شائع، لكنه مطالب بأن يقدم الدليل الذي يدعم اختلافه.

ولهذا فإن الباحث لا يكون تابعًا للمصادر، وإنما يكون محاورًا لها؛ يأخذ منها ما يفيده، ويناقشها، ويوازن بينها، ثم يبني رؤيته الخاصة.

عاشرًا: من التحليل إلى النتائج

تمثل النتائج المرحلة التي تظهر فيها حصيلة البحث، ولذلك ينبغي ألا تكون منفصلة عن التحليل السابق.

فالنتيجة العلمية ليست معلومة جديدة يذكرها الباحث في نهاية البحث، وإنما هي خلاصة لما كشف عنه التحليل والمناقشة.

وكلما كانت النتائج مرتبطة بأسئلة البحث وأهدافه، كان البحث أكثر تماسكًا.

ولهذا ينبغي للباحث عند كتابة النتائج أن يسأل نفسه:

- ماذا اكتشفت من خلال النصوص؟
- ما الذي أثبته التحليل؟
- هل أجبت عن أسئلة البحث؟
- هل النتائج مبنية على أدلة واضحة؟

إذا استطاع الباحث الإجابة عن هذه الأسئلة، فإنه يكون قد وصل إلى مرحلة متقدمة من بناء البحث.

الحادي عشر: أخطاء ينبغي أن يتجنبها الباحث الأدبي

هناك مجموعة من الأخطاء التي قد تضعف البحث الأدبي، ومن أبرزها:

١. اتساع الموضوع:

كلما كان الموضوع واسعًا جدًا أصبح من الصعب الإحاطة به بصورة دقيقة.

٢. كثرة الاقتباسات:

الإكثار من النقل قد يجعل صوت الباحث غائبًا داخل البحث.

٣. الاكتفاء بالوصف:

وصف الظاهرة دون تفسيرها لا يحقق الغاية الأساسية من التحليل الأدبي.

٤. الاعتماد على مصدر واحد:

يفقد البحث تنوعه العلمي، ولا يسمح للباحث بالموازنة بين الآراء.

٥. فصل النص عن التحليل:

فالشاهد الأدبي ينبغي أن يكون مرتبطًا بالفكرة التي يناقشها الباحث.

٦. إطلاق الأحكام دون دليل:

لا يكفي أن يقول الباحث إن الشاعر «متميز» أو إن النص «عميق»، بل ينبغي أن يوضح سبب ذلك من خلال الشواهد والتحليل.

إن منهج البحث الأدبي ليس مجموعة من القواعد الجامدة التي يلتزم بها الباحث بصورة آلية، وإنما هو طريقة في التفكير والقراءة والتعامل مع النص. فالباحث الأدبي يبدأ بملاحظة، ثم يحولها إلى سؤال، ويحدد لها مجالًا، ويختار المنهج الذي يناسبها، ويجمع النصوص والمصادر، ثم يدخل في مرحلة التحليل والمناقشة حتى يصل إلى نتيجة ذات قيمة علمية.

والفرق بين القارئ والباحث لا يكمن في أن أحدهما يقرأ والآخر لا يقرأ، وإنما في طريقة القراءة وهدفها؛ فالقارئ قد يبحث عن متعة النص، أما الباحث فيبحث كذلك عن أسئلته ودلالاته وعلاقاته وما يمكن أن يكشفه التحليل من معانٍ جديدة.

ومن هنا يمكن القول إن البحث الأدبي الناجح يقوم على ثلاثة عناصر متكاملة: نص يثير السؤال، ومنهج ينظم البحث، وباحث يمتلك القدرة على التحليل والمناقشة.

فإذا اجتمعت هذه العناصر، لم يعد البحث مجرد تجميع للمعلومات، وإنما أصبح ممارسة علمية تسهم في فهم الأدب وإعادة قراءته، وتمنح الطالب القدرة على الانتقال من موقع المتلقي إلى موقع الباحث الذي يسأل ويناقش ويحلل وينتج المعرفة.